

## «سورية المدنية» تحيي يوم المرأة العالمي بصوت همسة منيف الصّاح

دمشق - آمنة ملح

لأنّ سورية وجدت لتبقى، ولأنّ كلّ امرأة فيها تستحقّ أن يحْتَفَل بصومدها وصرها وتمسكها بأرضها وحضارتها وعزّتها، أحيت المغنّية همسة منيف بمرافقة فرقة «تخت شرقي»، اسمية غنائية على مسرح دار الأوبرا في دمشق لمناسبة يوم المرأة العالمي، ضمن فعالية «نساء من وطني» التي نظمتها جمعية «سورية المدنية».

وقدّمت منيف في الأسمية باقة من الأغاني الوطنية والتراثية استلهمتها بـ«أحد دمشق» و«مر بي»، وواصلت مع «مهما يتجرّح بلدنا» و«أرضي عم تقاسي». وشهدت تفاعلا كبيرا مع الحضور باختتامها الحفل الذي استمر لساعة من الزمن مع أغنية «تعلا وتتعمر»، حيث وقف الحضور مشاركا همسة الأغنية تصفيقا وغناء.

كما تخلل الأسمية التي حضرها كل من وزير الثقافة عصام خليل، ووزيرة الشؤون الاجتماعية ريمّا القادري، بعد أغنية «بكتب اسك يا بلادي»، قطعة موسيقية مع فرقة «تخت شرقي» عنوانها «ذكريات»، ووصلت حجاز بعنوان «تراث»، قبل أن تعود منيف إلى المسرح مع أغنية «رقة حسك وسمارك».

وفي كلمة ألقها رئيسة جمعية «سورية المدنية» ربي ميرزا قالت: «من هنا، من دمشق، من أقدم عاصمة ما زالت ماهولة، نرحّب بكم جميعا مجتمعنا سوريا منديا ينتمي إلى الوطن قبل أيّ انتماء آخر».

وتابعت: «سورية كانت وستبقى عامرة بمدنيتها ومجتمعتها، لا بقوى الغيّر. ولدينا ما يكفي لبنيناها، نبينها فكا وثقافة وعلما قبل كل بنيان».

وعن الفعالية لفتت ميرزا إلى أنّ «نساء من وطني» لقاء أurdناه بمناسبة يوم المرأة العالمي لنحتّم ونظهر الصورة الحقيقية للمجتمع السوري عموما والمرأة السورية خصوصا. وعللنا على أن يكون لقاءً مختلفا بالقول والفعل، بدانه قبل أيام في الخامس من آذار الحالي بورشة عمل توّزعنا فيها إلى مجموعات، وعملت كل سيدة في محور، فكانت محاور: المرأة والسياسة، المرأة والفنون، المرأة والتعليم، وتوصلت كل مجموعة إلى فكرة مشروع قابل للتطبيق على الأرض. فكان يومنا خلوّة للاستمرار عبر ورشات عمل متتالية. واستطردت ميرزا قائلة: «نساء من وطني» جاء ليُسمع العالم صوت المرأة السورية وهي تقول: أنا مواطنة سورية أنتهي إلى الأرض السورية أرض

الحضارة، سأعمل على بناء مجتمعي بالعلم والثقافة والأخلاق، ساحميه بالحق والقانون، المرأة السورية هي تلك السيدة التي عاشت الأزمة بتفاصيلها كافة، صعدت وعملت، فهي ضابط في الجيش السوري وأمّ الشهيد، إنثها الطبيبة، المهندسة، المدرّسة، الموظفة، الكاتبة، المنتجة والمزارعة، أضمت في بلادها ستين الحرب بقساوتها، وقاومت العقوبات الاقتصادية والضعوط. وخاطبت ميرزا المرأة السورية قائلة: إليك أيّتها المرأة السورية ألف سلام وتحيّة لصمودك، لدفاعك، لعملك، لبناتك وطفلك أينما كنت على هذا التراب المقدّس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. تفكّرنا هو وحدك الكفيل بتشكيل واقع حياتنا، ومقياس كل حضارة هو من خلال نظرتها إلى المرأة. ولأن سورية هي الأوّلى والأوّلَى، كوني قوية وفعلي ما استطعت، ازري الأمل قبل الفمح.

وختمت ميرزا مستشهدة بقول سقراط «المرأة العظيمة هي التي تعلّمتنا كيف نحبّ عندما نريد أن نكره، وكيف نضحك عندما نريد أن نبكي، وكيف نبتسم عندما نتألم».

بدورها، وجّهت همسة منيف عبر «البناء» معابديتها الأولى لمناسبة يوم المرأة العالمي إلى سيدة الياسمين أسماء الأسد، وقالت: «يسعدني أن أكون في بلدي وعلى منبر ثقافتي مهم في دار الأوبرا، لأملّ المرأة والفنّ وأقدّم رسالتي بصوتي. وأنا فخورة بكل امرأة سورية، وسعيدة بانثي أقدم هدية لكل من حضر ولكل امرأة سورية بجزء من مهنتي كمغنية وأستاذة في المعهد العالي للموسيقى كصوت سوري تملكه امرأة».

وعن تفاعل الجمهور مع الحفل أكدت منيف أنّه كان جميلا جداً، وطاقة الجمهور كانت قوية وإيجابية، حملت حماسة فُشّعت بأحاساس متبادل معهم، فأوجههم كانت مليئة بالفرح والأمل.

وتمنّت همسة منيف أن تعود سورية كما كانت، وأن تعود الحفلات إلى المسارح والساحات، والفرحة إلى قلوب السوريين. وختمت بالتأكيد على دور الإعلام في دعم الفنّ والفنانين، والتكاتف معاً لتقديم صورة جميلة. معربة عن فخرها بكل امرأة إعلامية تؤدّي دورها عبر عملها.

ومن بين الحضور، أعرب الفنّان مصطفى الخاني لـ«البناء» عن سعادته بوجود نساء سوريات يقدمن فعاليات كهذه، وقال: «كنا اليوم جزءا من منطقي

## البناء



إبداع المرأة السورية التي تقدّم صورة مشرّفة عن المجتمع السوري. والمرأة السورية أثبتت أنها ليست كما يسوّق لصورتها السلبية في الإعلام، بل هي امرأة فاعلة ومبدعة ومربية أجيال. وهذا الحفل جزء من هذا العطاء».

وأكد الخاني أن حضوره جاء كنوع من الدعم والتواصل الاجتماعي والتبادل الفني المشترك للاستمتاع بالإبداع السوري. وأشار إلى أنّ للفنّ دورا كبيرا خلال هذه الأزمة، كونه يعدّ جزءا من الإعلام الذي يمثل أحد أهم الأسلحة التي استخدمت في أزمة البلاد. وأنّ جزءا كبيرا من الفنانين كانوا على قدر المسؤولية، ولكن ما نشاهده اليوم يبقى أكبر من القدرة على التعبير عنه».

— 34 —

## المرأة في مناسبة يومها العالمي... من مبدعة ومقدّسة... إلى خاضعة ومدنّسة!



أفروديت

وتصير. تتالم وتقاوم بما هو متاح، تحضن ذاتها ودورها الأزلي وتحلم بأن يستيقظ وعي البشرية ذات يوم ليستعيد توازنه. ذلك الوعي الذي تهيمن عليه معايير الهبوط والاستلاب التي فرضها النظام الذكوري من جانب، وعزّزته حالة الاستلاب عند المرأة ذاتها من جانب آخر، فعادت دمارا في هذا الإنسان والطبيعة. إلا أن هذه اليقظة الإنسانيّة لن تحدث تلقائيا، ولن تحدث من دون تغيير عميق في البنى السياسيّة والاجتماعيّة.

المسألة هنا ليست مجرد رغبة عاطفيّة أو انحياز عشوائي للمرأة. بل هي محاولة للتذكير بجوهر المشكلة وجذرها، التي تتجاوز اللغو العام عن الحرّيّة والمساواة والهدايا الرمزيّة ذات الدلالة، إنها تعيد تذكيرنا بالأصل، بالبدايات الأولى، حيث كانت الإنثى مشيعة بذاتها، بحضورها ودورها، فكانت فاعلا إيجابيا ومقرّزا لا منفعلا سلبيا وهامشيا.

فما دامت المرأة مقهورة ومستقلّة ومستتيلة، ومجرد موضوع لمثعة الرجل واحتياجاته ومكثّلة لدوره فقط، أو هي مجرد حاضنة لأطفاله، وبالتالي فإن من حقّه أن يستعبدها ويستغلّها. فلن نكتشف البشرية معنى إنسانيّتها العميق، ولن تصل إلى الحرية الحقيقيّة يوما.

### تحرّر

بهذا المعنى، فإن حرية المرأة بمعناها العميق والشامل، جوهر الصورة الاجتماعيّة وركيزتها الحاسمة، لا بل هي جوهر تحرر الرجل ذاته من ثقافة الاستعباد التي تدمّر إنسانيّته وتكامله الطبيعي مع المرأة.

جوهر الثورة الاجتماعيّة هذه يتجلّى في التحرر من الاستعباد والاستغلال الاقتصادي والسياسي والنقائي والجنسي والطبقي للمرأة، من دون ذلك سيبقى المجتمع يدور في المئامة ذاتها من البؤس والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي.

إنّ، مسألة حرية المرأة أكثر تعقيدا وهولاً من الرقص على مفردات اللغة، إنها تعود إلى تصحيح العلاقات التي اختلت ويعمق عبر التاريخ الإنساني، أي تلك العلاقات التي تعيد إنتاج قهر المرأة واستلابها السياسي والاقتصادي والنقائي والجنسي والنفسي، تلك العلاقات التي هبطت بالمرأة من مداراتها الطبيعية المقدّسة والجميلة بذاتها وجعلتها تتوارى خجلاً من ذاتها ومن عقد النص والنصر التي زرعت قسراً فيها حتى باتت تشعر فعلا أنها بطبيعتها ناقصة ومدنّسة. فمنذ أن احتلت الثقافة والسيطرة الذكوريّتان وعيها وهي تجاهد لإرضاء ذوق «سيدّها»، حتى باتت لا ترى نفسها إلا بعيون الرجل ووفقا لمعاييرهِ السائدة. وما دامت المرأة تدور في هذه الدوائر المفرغة، فلن نكتشف ذاتها، ولن نعرف معنى الحرية الحقيقيّة أبدا.

وبكلمة، إن حرية المرأة بالمعنى الشامل والمعيق (سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وجنسيا ونفسيا وسلوكيا) هي ممزّ إجباري لكي تستعيد الإنسانيّة حريتها وكرامتها ومضمونها وتوازنها الطبيعي.



فينوس

الاجتماعية الذكورية السلبية المهيمنة ومحدّاتها وقيودها، تفقد المرأة حريتها الحقيقية وخصوصيّتها الإبداعية، فتسقط في ما يمكن أن نسمّيه «الغياء الاجتماعي» أي الخضوع «الحز» للإبحاءات والمعايير والاشتراطات السلبية السائدة اجتماعيا، باعتبارها وعيا حقيقيا للواقع. تلك المنظومة الثقافيّة القهريّة متناقضة في داخلها وبصورة مزريّة. فهي من جانب تقدّس المرأة الأم، ومن جانب آخر تتعامل مع المرأة بالمطلق ككائن ناقص أقل مرتبة بذاته.

### تسليح

فالمرأة، ورغم كلّ قصائد المديح والغزل والورود الحمراء، ورغم كلّ الشعارات والوعود والاحتفاء بها لكلّ سنة وكانها مجرد مناسبة سنويّة كأيّ عيد ديني، إلا أنها في الواقع لا تزال وفي مختلف بقاع العالم (وإن بنسب متفاوتة) تدفع الثمن الأكبر من حرّيتها وحقوقها وكرامتها. إنها تكابد وتقاوم، ومن حولها ألف دائرة للحصار والقيهر والاستغلال، فنقتل ونغتصب ونستغلّ ونسّلع ونشّيا، حتى فقدت كرامتها وضاعت معالم شخصيّتها وفردانثها وخصوصيّتها.

أصبحت وسيلة للإبضاع لشياع غرائز الذكورة المنفلتة، وتحوّلت في عصر الاستهلاك إلى سلعة استهلاكية، لا بل مجرد وسيلة لترويج السلع في الأسواق، والسيخوخة والمايوهات والاصطياد الفران والغلال والبيّنزرا والفلفل الحار والحلو، ووو. فنلّ مغامر أو قمارم يحلم بالثروة ويريد الترويج لأنكثوية استهلاكية جديدة يبحث عن جسد المرأة فيهنك خصوصيته وقداسته (جسد المرأة) لكي يبيع أكثر ليربح أكثر.

والمرأة في هذه الواقع هي أيضا وقود الحروب والاحتلالات واقتتال الطوائف والأديان والقبائل وصدام الحضارات والثقافات. إذ يشعل مجتمع الرجال (كمنظومة سائدة في المجالات كافة) النيران من حولها ويحاصرونها ثم يبدؤون بالصراخ والتالم على آلامها. يطلقون شياطين الحروب والدمار والقهر وتجارة الدعارة ثم يعقدون المؤتمرات للكياء على ما تتعرّض له من ويلات. يرفعون راية الحرّيّة والديمقراطيّة والمساواة والحقوق الإنسان، وفي اللحظة ذاتها يكرّسون ويؤيدون منظومات القهر والتمييز والاستغلال التي تعيد إنتاج استلاب المرأة وعبوديتها.

مع ذلك، ورغم أهوال القهر والقمع والتمييز والاحتقار والتسليح والتشويه،، إلا أن المرأة تتحمّل

(من رسالة بعل إلى عناة. الأسطورة الكنعانيّة.)

(5)

«أنا أمّ الأشياء كلّها سيدة العوالم

بادئة القوة الربانيّة

أنا مركز القوة الكاملة وراء كلّ الإلهات والألّهة بيديّ أقدر نجوم السماء ورياح البحر وصدمت

الجحيم

لكن اسمي الحقيقي هو إيزيس به أرفعوا أذعيتكم وصلواتكم». (ترنيمة مصريّة، الدولة القديمة).

(اقتبس النصّوص من رواية «ظلّ الأفعى» للروائي المصري يوسف زيدان، ويضمّنها من فراس السواح «الأسطورة والمعنى».)

### تحولّ

هكذا تتحلّى المرأة في الأسطورة بكامل جمالها وعقها وكامل حضورها وجويّتها وفاعليتها. فحين تتماهى المرأة بالطبيعة والمجتمع فإنها بذلك تحسّد إنسانيّتها المطلقة. إنها تعود إلى نبعها الأول، فالأسطورة ليست وهما، بل هي انعكاس وتجسيد ثقافي لمقاربة الإنسان ووعيه في تعامله مع حركة الطبيعة والعلاقات الإنسانيّة في سياقات هذه الحركة.

المرأة في الأسطورة خالقة وهايمة، منتجة ومقرّرة ومبدعة، ذلك لأنها كانت كذلك بالفعل. فقد استمدّت قوّتها وحضورها القويّ ذاك من دورها المباشر. فمما تستقبل الأرض المطر في المواسم فتنهض الطبيعة بكلّ كائناتها الحيّة وبكلّ تنوعها وتكاملها واكتمالها، كذلك المرأة فإنها تحتضنّ دورة الحياة وتحميها ثم تهبها في لحظة الولادة ومن نديبها ترعاها حتى تكتمل.

لقد دمرّت منظومة القهر الطبيعيّ دور الإنثى الشامل هذا بصورة تاريخيّة ومنهجية، فحوّلها من كائن فاعل ومقرّر على المستويات كافة إلى كائن خاضع وهامشي، مجرد تابع يدور حول مركزية الرجل وفي أفلاكه. فحرمتها تلك المنظومة القهريّة من حقوقها وأدوارها الطبيعية وحدّت منها. ثمّ ارتبّز تبدل طاقتها لتبرهن على نقصها ودونيّتها لتبرّز خضوعها والسيطرة عليها والغريب هنا أنّ كل الرجال تحلمهم وتحضنهم وتربيهم وتحّدّن مضارهم المرأة/الأم، لكنهم في النهاية ينقلّبون عليها ويحقّقونها كمرآة ناقصة ضعيقة وهشة.

لقد وظّفت هذه الثقافة والبنى السياسيّة والاقتصاديّة والحقوقية الفوارق البيولوجيّة لتكرّس هذا التمييز القهريّ فكريا وأيديولوجيا، والهدف العميق كان إيصال المرأة إلى تلك المرحلة من الاستلاب بحيث تقنّع أنها فعلا أقلّ من الرجل قيمة ودورا وشأنا وإنتاجية وعقلا وحتى دينا. فهي بحسب تلك الثقافة تمثّل التجسيد المباشر لتشوّهات الطبيعة، فيما الرجل يمثل الكمال. وهكذا، وفق معايير التقاليد والقيّم والإبحاءات

لنقرّأ:

(1)

«يا سيّدة السيدات وربّة الرّبات يا عشتار... ملّكة كلّ الناس، الهاديّة إلى السبيل المستقيمة

الرحمة يا سيّدة الحرب المسيطرة على كلّ المعارك

أيّتها الساطعة يا لبؤة إيجيجي، يا قاهرة الألهة أيّتها الممّجّدة، يا ذات الثّياب والعزم أيّتها البجلة عشتار المتألّقة، مضيئة السماء والأرض عظيمة القوة، جامعة الحشود

إلهة الرجال وربّة النساء لا يعرف خططلها أحدّ عبدك المعبّد يستصرخك

فانظري إليّ يا سيّدي، وتقبّلي صلواتي

(٢)

يا عشتار الممّجّدة، الباسلة، التي لا نظير لها..

(ترنيمة سومريّة القرن 23 ق.م.)

(2)

«عشتار، أيّتها السيّدة المانحة للحياة

ندياك يا سيّديتي، حلّق معطاء وانبثاق الخضرة والحياة في ملكة الزرع والنبات. ولما كان الإنسان القديم ينظر إلى خصب الأرض وخصب الإنسان على أنّهما مظهران لجوهر واحد، فقد كانت «إنانا» و«عشتار» و«عناة» إلهة للحبّ

أيضا، فارتبطت بعبادتها طقوس جنسيّة واحتفالات كثيرة، خصوصا تلك التي تروي عملية عودتها من العالم السفلي في أعياد الربيع المشهورة.

وهي إلى جانب كونها إلهة للحبّ والخصب، فإنها أيضا إلهة للحرب والمعارك، فهي شجاعة تغشى الوغي وتجاهه أعداءها بكلّ ضراوة وجبروت، ولهذا نظمتها بعض الأعمال الفنيّة وهي مدجّجة بالسلاح وتخضع الأسود.

كم هو جميل أن نعود في رحلة كثيفة إلى تلك الأساطير، فهي جذر كونيّتي ثقافي هائل عند الشعوب، ولا تزال، ومن دون أن ندري، تقفل الخلاق. حتى اليوم في اللغة والطقوس والعادات في شتى مجالات حياتنا الاجتماعيّة.

(٣)

«إنانا سيّدة النواميس الربانيّة أيّتها الأنوار الساطعة، يا واهية الحياة يا مكتسيّة بالجلال

يا ذات الحلّي العظيمة يا صاحبة القيام الأوّل أنت إنانا السماء، وإنانا الأرض يا مطرّة البلاد، المعتديّة باللّهب وصانعة القزارات بالأمر المقدّس

(٤) في خضمّ المعارك، وتحمّل الكلّ أمامك ويفني كلّ شيء يقوّتك تهجين كالعاصفة، وتدوين كلّ لرعد أيّتها الحياة الحكيمة

واهبية الحياة صاحبة القلب النيّر... أنا إنخيدوانا

أتلو الصلوات، وأقدّم دعويّ شراباً غديبا لإنانا المقدّسة..

(ترتيلة لإنخيدوانا ابنة الملك سرجون الأكادي، 2271 ق.م.)

(4)

«عن دقّمي عناة انحنيا واركعا، اسجدا وبجلاها ونقّل للعزراء عناء، أعلناسيّدات الإنبطل

أولّ أقيمي في الأرض وثامنا،

وابذري في التراب المحبّة،

واسكبي السلام في كبد الأرض،

وليعلل الحبّ محقّرقا جوف الحقول..»



عشتار

نصّار إبراهيم

«إلى ربّة الأشياء كلّها سيّدة السماء والأرض، عشتار

المالكة،

التي سارت في العماء المخيف

فأوجدت الأشياء بالمحبّة»

(ترنيمة بابلية، القرن 17 ق.م.)

في يوم المرأة العالمي، كنت أتمنّى بدلاَ من الاحتفال بالمرأة على شكل كلام وغزل ومديح، أو على الأقلّ إلى جانب ذلك، أن تحفل المرأة أولاً

بذاتها، بأن تكتشف قوّتها وأن تعي معنى حرّيتها ودورها الطبيعي العميق، وأن يعي المجتمع بدوره معنى حرية المرأة الحقيقي لا الشكلّي الساذج، بما يتجاوز كثيرا كلّ قصائد الغزل وكلمات المديح والندى، الممزّية بالورود الحمراء والألماس والأنوار المزليّة، ذلك لأنّ دلالة هذه الأشياء والسلوك الذي يرافقها إنما يعكسان الوعي الدفين حول دورها الحصار التي تقدّس المرأة.

كنت أتمنّى أن تساعدني المرأة بثورتها وتمرّدها على العلاقات والثقافة السائدة كي أتحرّر، أنا أيضا كرجل، من ثقافة الاستغلال والاستعباد والهيمنة والسيطرة التي أمارسها ضنّها بوعي أو من دونه، كي أتحرّر من ثقافة السيّد التي تستعبدني، ولكن للأسف تبقى هذه مجرد أمنيات، والأمنيّات لا تتحقق من دون وعي وفعل.

فاحترام المرأة الجدي والعميق يكون باحترام حرّيتها الكاملة وفي وعي دورها وممارسته كفاعل اجتماعي حاسم، واحترام حقوقها الطبيعيّة في المجتمع والحياة على المستويات كافة. وهذا لن يتحقّق إلا إذا تخطّى المجتمع منظومات الثقافة والسيطرة الذكوريّة التي جعلت من المرأة كائنا ضعيقا، هشّا ومستلبا وموضوعا للغرائز.

كانت المرأة في أساطير بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وفي مصر القديمة قوة تكوين وقرار وقيادة، طاقة فعل وخلق وإبداع، محورا مركزيا في حياة المجتمعات وتجددها ونشاطها الخلاق. لم تكن مجرد كائنّ خامل متبلّد ينظر في غرف نوم الألهة الذكور.

كانت المرأة إلهة للمطر والخصب والزراعة والحبّ والتجنّد والحرب والصيد، إلهة منتجة، لم تكن هشّة أو هامشيّة مطلقا، كما لم تكن ناقصة عقل أو إرادة. وقد بقيت تلعب هذا الدور وياقتدار منهل إلى أن جاءت الهيمنة الثقافيّة الذكوريّة في سياق تقسيم العمل وفق قوانين السلطة السياسيّة الطبقيّة. فأغضبت دور المرأة وأرغمّت على الخضوع، لم يحدث ذلك بسهولة وعفوية بل عبر صراعات سياسيّة وثقافيّة طبقيّة طاحنة، كانت نتيجتها مزيمّة تاريخية لمرأة ودورها.

### عشتار

في أساطير التكوين البابليّة والسومريّة والكنعانيّة كانت «عشتار»، أو «إنانا» أو «عناة» و«عسنتار»، أو «شتروت» في بيلوس وصيدون وغيرها من مدن الشاطئ اللخوبي، والتي